إخترنا للجندى

الفقاعى

أصغر فدائى مصرى

بقلم
محمود بن الشريف

اخترنا للجندي

الفقاعي

أصغر فدائي مصري



بقلم

محمود بن الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

فى الصفحات التالية خطوط تمثـــل شخصية الفدائى الصغير « عبد الستار آدم الفقاعى » شخصية فدائى عربى ، بل أصغر فدائى من محافظة بنى سويف .

كان نموذجا للنضال الفردى النبيل ، ورمزا لـكفاح خطط له بمفرده ، ووضع — وحده — ركائزه ، وقام بتنفيذه فذاً من غير أن يشترك معه أحد أو يعينه معين .

فـكر . . وقدّر ، ثم صمم ونفذ ، من غير أن يعلم أحد صليعه . . تحصن بالصمت ، وأحاط خطته بسياج من كتمان ، فإن قُدّر له ولها النجاح كان له ولقومه الغنم ، وإلا فيكفيه أن يكون هو وحده الضحية ، من غير أن ينال قومه مكروه ، أو يصيب مواطنيه رذاذ من أذى .

تحمل التبعة وحده . . وكان يقدّر ما سيقدم عليه . .

كان يعلم أن دوره انتحارى ، فإما الصدر ، وإما القبر .

ذلك الدور الذى لولا أن أرّخه المؤرخون الأجانب ، وسجله الـكتاب الفرنسيون الذين رافقوا الحملة الفرنسية ، وأرخوا لها من واقع

حوادث الحملة وأحداثها لحسبه البعض أسطورة نسجت خيوطها يد المغالاة ، وصنعت حوادثها روح العصبية . . غير أن الحق ما شهدت به الأعداء .

دور لم يكن أمام التاريخ مندوحة من أن يسجله ، ولم يكن أمام كتاب الحملة الفرنسية على مصر ومؤرخيها إلا أن يشيدوا بالموقف البطولى . . وأن يسطروا — مشدوهين — هذا الدور الرائع الذى قام به «الفقاعى» على مسرح البطولة الصادقة والوطنية الحقة

وحق لنا ونحن نمجد كفاحنا الشعبي ، ونكشف لأبنائنا ولجيلنا عن أبطالنا فى ذلك الميدان ونجلو شخصيات المكافحين الشعبيين — حق لنا أن نذكر عبد الستار الفقاعى بعد أن كادت يد النسيان والإهمال فى الماضى تطمس معالم نضالنا الشعبي وتحاول تغطيته أو تشويهه وتمويهه ! !

ولئن كان فات الرعيل الأول من المسئولين تقدير البطولة وتمجيد الفدائية ، فإن المسئولين اليوم والقوامين على أمر الشعب فى كل مجال — وهم من أبناء الشعب — لا يملكون إلا إحياء ذكراه ، وتمجيد بطولته ، وتخليد شخصيته ، لتكون نبراساً يهدى ويرشد ، ولتكون مثلا أعلى يحتذيه نابتة العرب فى كل مكان ، ولا سيما فى هذه الأقطار العربية التى مازالت تجالد المستعمرين ، والتى تحاول جاهدة أن تحطم قيود الاستعمار ، لتنشق العبير .. عبير الحرية والاستقلال بفضل أبطالها وفدائييها ..

من أجل الحرية ..

من أجل التضحية ..

من أجل الفدائية ..

من أجل ذلك كانت هذه الصفحات ، ومعها تحية تقدير لروح أصغر فدائى أنجبه وادى النيل .

محمود بن الشريف

خوذات حربية تلمع تحت أشعة الشمس . . تحملها رءوس جنود لم يعرفوا الغاية التى يتجهون إليها . . ولا يعلمون إلا شيئاً واحداً فحسب ، وهو أنهم متجهون إلى قتال . . قتال فحسب ! !

قتال من ؟ وأين ؟ فكل ذلك كان من الأسرار المحجبة عنهم . .

وحركة دائمة دائبة فى ميناء طولون الفرنسى . . معدات حربية . . ومدافع ثقيلة ، وذخيرة حية . . وبنادق وقنابل ، ومؤن وأطعمة ، يحمل كل هذا أسطول فرنسى لم يكن يعلم قبلته واتجاهه إلا نابليون قائده ، وخلصاؤه الذين معه .

وفى البحر المتوسط تراءى أمام نواظر الجنود من بعيد ثغر الإسكندرية وظن الجنود أن الإسكندرية ستكون لقمة سهلة سائغة يزدردونها بسهولة كما ازدردوا فى سهولة ويسر — جزيرة مالطة التى خلفوها وراءهم وهم فى طريقهم إلى مصر . .

وبقدر ما أسكرتهم نشوة النصر الخاطف والظفر السريع فى « مالطة » بقدر ما كانت مرارة كأس المقاومة التى تجرعوها من أهالى الثغر ، فما كاد الفرنسيون يضعون أقدامهم فى الإسكندرية حتى بدأت مقاومة الأهالى لهم ، وتزعم المقاومة « السيد محمد كريم » وتحصن بقلعة « قايتباى » حتى نفد ما فى القلعة من ذخيرة . .

ولما توغل الفرنسيون داخل المدينة قابلهم أهلها بقتال شديد فى المنازل وفي الطرقات ، وفى الشوارع والأزقة ، وفى كل شبر من أرض الإسكندرية . .

وانطلقت رصاصة كادت تضع خاتمة الفشل لهذه الحملة الأجنبية ، انطلقت من بندقية سيدة مصرية ، ومرقت بجانب « نابليون » إلا أنها لم تصب منه مقتلا ! !

ولما لم تجد المقاومة الإيجابية ؛ لكثرة عدد العدو وعدته ، لجأ الأهالى إلى المقاومة السلبية ، فلم يتعاونوا مع جنود الاحتلال ، ولم يتعاملوا معهم .. وفى الطريق إلى القاهرة ، حيث الصحراء الرهيبة الواسعة ، أخذ البدو يهاجمون الجنود نهاراً ويتخطفونهم ليلا . .

وفى القاهرة جابهتهم ثورات . . وفورات

ثورات لم تخفها القوة . . ولم يرهبها البطش . .

وفورات تحدت الفناء . . لم يسكتها صوت مدفع ، ولم يشدها طلقات مسعورة تخرج مدوية من فوهات آلاف البنادق والمدافع والقنابل المبيدة المحرقة . .

ففى أكتوبر سنة ١٧٩٨ م ثارت القاهرة ثورتها العارمة الأولى ، وتكتل أهلها ، واتجهت جموعهم إلى الجامع الأزهر الشريف ، حيث عبأت خطب العلماء قوى الجماهير ، وشحنت طاقاتهم بشحنات من حماسة اتجهت بهم — فى صدق وإيمان — إلى جهاد مرير . . كان من نتائجه أن قتل حاكم القاهرة الفرنسى ، وقتل معه مئات من جنود الفرنسيين . . وكان من نتائجه أيضاً أن ضرب نابليون حي الأزهر بالمدافع ، وأهدر

حرمة بيت الله حينما وطئت سنابك خيله أرجاء ذلك المسجد العتيد العتيق ، ليقضى على مصدر القوة ومبعث المقاومة الشعبية :

* * *

وقد ماجت كتب التاريخ بصور بطولية متعددة نابضة بالإيمان تنبىء عن مدى ما كان يجيش فى نفوس علمائنا آنئذ من فورة وقوة حتى المكفوفين منهم كان لهم دورهم النضالى فى هذا المجال وفى كتاب « صور من البطولة الإسلامية » يرسم لنا مؤلفه الأستاذ فهمى عبد اللطيف صورة مضيئة لبطل مكفوف من علماء مصر فى ذلك الحين وكان اسمه الشيخ سليمان الجوسقى ، يقول عنه فى ص ٧٦ « .. فرغ الشيخ سليمان الجوسقى من صلاة الفجر فى الجامع الأزهر على عادته فى كل يوم ، ولكنه فى ذلك اليوم كان يبدو على غير عادته بين إخوانه وطلابه ، فهو ساهم واجم يستغرقه تفكير عميق ثقيل ، وهو فى تفكيره منصرف عن كل شىء من حوله ، حتى كان إخوانه يتلقونه بتحية الصباح فلا يجيبهم ، وكان طلابه يكبون على يده يقبلونها فيلقيها إليهم فى إغفال واستسلام ، كأنه لايبالى شيئا من أمرهم .

ومضى الشيخ الجوسقى إلى حلقة الدرس ، وهو على هذه الحال ، ساهم واجم ، مستغرق فى ذلك التفكير العميق الثقيل ، ولقد أخذ مكانه فى حلقة الدرس ، والطلاب يحفون به منصتين ، ولكنه جلس صامتاً واجماً لم يتكلم بكلمة ، ولم يعنه أن يسأل الطلاب فيما حققوا من مسائل الدرس ، أو صادفوا من مصاعبه ، كشأنه معهم فى كل يوم .

وما كان الشيخ الجوسقى هكذا أبداً ، ولا عرف طلابه عنه هذه الحال فى يوم من الأيام ، فقد كان شيخاً مكفيفاً ، يتولى شئون طائفة

العميان والتدريس لهم فى الأزهر ، ولـكنه لم يكن يرى فى تلك المحنة حداً يعوقه عن أى شأن من شئون الحياة ، فـكان معروفاً بين إخوانه بقوة الشكيمة والصرامة فى الحق ، يحرص كل الحرص على مصالح طائفته ، ويبذل كل الجهد لاستخلاص حقوقهم ، ولو أدى ذلك إلى الاعتماد على القوة ، والالتحام فى المعركة ، وكان إلى جانب هذا متفتح النفس ، يهش للدعابة ، ويطيب له التبسط فى الحديث مع طلابه ومريديه ، ويعنيه أن يتحقق بنفسه شئونهم العامة ، ومسائلهم الخاصة ، ومن ثم كان طلابه يخشونه أشد الخشية ويحبونه أعظم الحب ، وكان إذا ما أقبل على الدرس فى كل يوم بعد الصلاة الأولى أقبلوا عليه ، فيفضون إليه بما فى فى نفوسهم ، ويسمعون منه مايشير به عليهم ، ثم يفرغون معه لدرس التفسير فى كتاب الله الـكريم ، ولا يزالون حتى ترتفع الشمس ، ثم ينصرفون للاستعداد لدرس آخر .

ولـكن الشيخ أقبل على طلابه فى ذلك اليوم ، وهو على تلك الحال التى لم يألفوها منه ، ولم يعرفوها عنه ، وأشفق الطلاب أن يكون قد نزل بشيخهم مكروه فى نفسه ، أو فى أسرته ، فقال قائل منهم :

— لابأس على مولانا الشيخ فيما نرى ؟ فقد فات موعد الدرس وهو منصرف عنا !!

قال الشيخ فى صوت محتبس أجش :

كيف وهذا هو الباس يأخذ بنواصينا وأقدامنا ، وهذا هو الـكرب يشد على خناقنا شداً عنيفاً ، فليس لنا منه متنفس ، وفيم أنتم وهذا الدرس ؟ ! وما هو إلا كلام تلوكونه بألسنتكم ، ولـكنكم لاتحسونه

بقلوبكم ، ولا تعرفون فيه حق دينكم ؟ وهل حسبتم أن الإسلام هو تلك الكلمات التى ترددونها وتناقشونها ثم تنصرفون بها إلى الناس وكأنها تجارة كلامية حسبكم من الربح فيها تلك الفضلات التى تقيم أودكم ، وتمسك رمقكم ، إذن ، فياضيعة الإسلام فيكم ، ويا خسارته بكم ، ولست أدرى أهى نهاية الزمان ، أم أن الله مقيض لهذا الأمر من ينهض به ، ويبعثه بعثاً جديداً فى عقول هذه الأمة وقلوبها ؟ !

قال الطالب : وهل عرف شيخنا على أحد منا سوءاً فى دينه ، أو تفريطا فى حق من حقوقه ؟ .

قال الشيخ : وماذا بقى هناك من حقوق دينكم ؟ وأى أثر لذلك فى نفوسكم ؟ لقد جل الخطب حتى أوشك ألا يبقى من هذا الدين بقية تتصل بأرواحكم . هؤلاء هم الفرنسيون الكفار قد وطأوا بلادكم . ثم انتهبوا دوركم وأموالكم ، ثم انتهكوا حرماتكم وأعراضكم ، وها هم أولاء فيما عرفت يعمدون إلى تغيير نظام المواريث فى دينكم ، فيجعلون حق الإرث كله للبنت ، وليس للولد منه شىء كما هو شرعهم ، ومتى بطل جزء من الشريعة فإنها جميعها لابد صائرة إلى المسخ والزوال ، وإنكم لصائرون غداً أرقاء فى خدمة هؤلاء الفرنسيين الكفار وبكم تكون نهاية هذا الدين وزوال الملة . .

وسرت بين الطلاب همهمة وغمغمة ، وارتفعت الصيحات استنكاراً لتلك النازلة الساحقة التى حلت بالمسلمين فى دارهم . . ووقف بعض الطلاب يتكلمون ، فمنهم من يلقى اللوم على أولئك المماليك الجبناء الذين فروا من مواجهة العدو وتركوا الشعب يحترق فى أتون المعركة . . ومنهم من يعتب

على دولة بنى عثمان التى تركت الفرنسيين يصلون إلى فتح البلاد ، وإهانة الإسلام . . ومنهم من يسب الخائنين والمارقين من أبناء الطوائف الدخيلة على البلاد ، لأنهم تعاونوا مع العدو ومكنوه من رقاب الشعب ، ومنهم من يقول : إنه غضب الله على المسلمين جزاء ما فرطوا فى دينهم ، وضيعوا من حقوق ملتهم . .

وعاد الشيخ الجوسقى يتكلم فقال : حسبكم يا أبنائى هذا الضجيج على غير طائل ، إننا اليوم لسنا فى مقام توزيع التبعات ، وليس من الحكمة أن نترك السفينة تهوى إلى القاع ونحن مشغولون بمعرفة الملوم فى هذه الكارثة !! وإنما الواجب أن نفزع لدفع الكارثة التى حلت بنا ، ثم نصفى أمورنا إذا بقى لنا أمر بعد ذلك ! ! فحرام عليكم طعامكم وشرابكم . . وحرام عليكم أن تقيموا على الضيم فى وطنكم ، وأن تجلسوا فى هذا المكان باسم الاسلام . والفرنسيون يصنعون بإسلامكم ما شاءوا أن يصنعوا . .

قال قائل منهم : وماذا فى طاقتنا أن نصنع إزاء حرب الفرنسيين ، وقد حرمنا نعمة البصر ، فما ندرى إلى أين نسير ؟ ، والله يقول : « ليس على الأعمى حرج » . .

ولم يكد الطالب يتم قولته ، حتى انفجر الشيخ كالبركان قائلا : نعم ، لا حرج عليكم فيما هو من شئونكم الخاصة ، ولكنكم اليوم إزاء كارثة حلت بدار الإسلام ، وإنها لآخذة برقابكم جميعاً ، والله يقول : « إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فانصرفوا إلى الناس فى دورهم ، وحيث هم فى أعمالهم ، وتفرقوا على أبواب الطرقات

والحارات ، وقولوا لكل من لقيتم إنكم اليوم بين شقى الرحى ، وإن الفرنسيين قد استباحوا حرماتكم وأهانوا شرفكم ، ونهبوا أموالكم ، وبدلوا دينكم ، فلا عزة لكم بين الأمم ، ولا كرامة لكم عند ربكم إذا مارضيتم بهذا الأمر فيكم . .

ووقف الشيخ فى انفعال وثورة . والله ما قام هذا الدين إلا بالجهاد ، ولا أزهرت شجرة الإسلام إلا بدماء الشهداء ، ولقد خاض رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرب حتى شج وجهه وكسرت رباعيته ، وفى سبيل الله استشهد سادتنا من الصحابة والتابعين ، فلعنة الله علينا إن كنا من القاعدين بعد اليوم ... ثم اندفع الشيخ واندفع معه طلابه إلى الخارج وهم يصيحون : إلى الجهاد والاستشهاد . . إلى الموت فى سبيل الله .. وكانت الثورة ..

كانت الشمس ترتفع للضحى .. وكانت القاهرة تبدو هامدة واجمة تحت وطأة ذلك الكابوس الفرنسى الذى جثم على قلبها فجأة . . وكان الناس يغدون ويروحون ، وهم لايدرون من أمرهم شيئاً لليوم أو للغد ، فما هى إلا ساعات من نهار . حتى كانت القاهرة تغلى كالمرجل ، وكان الناس يقفون فيها على قدم وساق متوثبين متحفزين لأمر له مابعده ، فقد تفرق شيوخ الأزهر وطلابه على أبواب الطرق ، وتغلغلوا فى الحارات والأزقة بحى الأزهر والحسينية ، وراحوا يتحدثون إلى الناس فى شأن هؤلاء الفرنسيين الذين استعمروا بلادهم ونهبوا أموالهم ! واستباحوا حرماتهم ، وأخذوا يذكرونهم بحق الدين فى الجهاد والاستشهاد وكأنها كانت الشرارة قد اندلعت فى الهشيم ، فإذا بالجموع تتداعى من

كل ناحية ، والصيحات ترتفع من كل جانب : إلى الجهاد .. إلى الاستشهاد النصر لمصر .. النصر للعرب .. النصر للاسلام .

ووصل الخبر إلى السلطات الفرنسية ، فركب الضابط « ديوى » على رأس قوة كبيرة من الفرسان والجنود ، ومر بشارع الغورية ، وعطف على خط الصنادقية .. ثم قصد بيت القاضى فوجد جموعاً كبيرة من المصريين ، وهم يصيحون ويتوعدون ، فتراجع أمامهم ، وأراد أن يخرج من بين القصرين ولكنهم أدركوه ، والتحموا به فى معركة عنيفة أسفرت عن جرح « ديوى » بجراح بالغة ، وقتل أكثر جنوده وفرسانه ولم يفلت القائد الفرنسى من براثنهم إلا بأعجوبة .. وأيقن أبناء القاهرة أن هذه المعركة ليست إلا بداية موقف حاسم بينهم وبين الفرنسيين ، وأخذوا من وقتهم يستعدون لهذا الموقف فرابطت الجموع عند الأطراف وعلى مداخل القاهرة عند باب الفتوح وباب النصر وباب زويلة وباب الشعرية وأقاموا المتاريس فى كل مكان مفتوح للهجوم ، وأخرجوا ماعندهم من السلاح والذخيرة وباتوا الليل ساهرين .

وأصبح الصباح .. وكانت القوات الفرنسية قد أخذت أماكنها فوق تلال القلعة ، وهى مستعدة بالعتاد الكامل والمدافع الثقيلة ، ثم أخذت تقصف القاهرة بالقنابل ، وركزت الضرب على حى الأزهر بصفة خاصة وتساقطت القنابل على الدور وفوق السكان ، ولم يكن دوى القنابل مألوفاً لعامة الشعب ، فساد بينهم الفزع والرعب ، ولكن المرابطين على المتاريس وقفوا ثابتين ، يدافعون فى شجاعة وعناد ، وأمضت القاهرة ليلة مظلمة لم تعهدها من قبل ، فما كنت تسمع فى وسط ذلك الظلام الخانق

الرهيب إلا دوى القنابل وهى تتساقط فى كل مكان . . وإلا صيحات المجاهدين والمدافعين وهى تتجاوب بالثبات والإقدام .. وطال الوقت والفريقان يتبادلان الرمى والضرب .. وأرسل الفرنسيون إلى شيوخ الأزهر أكثر من مرة لعلهم يتدخلون لتهدئة الثورة ، ولكن المواطنين أصروا على الكفاح إلى آخر رمق من حياتهم .

واستمرت المعركة دائرة يومين وليلة .. وتساقط القتلى من الجانبين فى الشوارع والطرقات ، وتهدمت الدور فى كثير من المواقع ، وبقى المواطنون فى أماكنهم صامدين ، يناضلون ويدافعون ، حتى فرغت الذخيرة منهم ، فتوقفوا عن الضرب والرمى .. وانفتحت الأبواب أمام الفرنسيين فانحدروا إلى القاهرة بخيلهم ورجلهم وهم يمعنون فى الأهالى العزل قتلا وفتكا .. وعاثوا فى حى الأزهر جميعه فساداً ، ثم اقتحموا الجامع الأزهر بخيولهم .. واستباح أولئك الذين جاءوا يبشرون فى الشرق بمبادىء الثورة الفرنسية استباحوا ذلك الحرم المقدس فربطوا فيه خيولهم ، وشربوا فيه الخمر ، وعاثوا بكل مافيه من المصاحف والكتب والخزائن فساداً واتلافاً ثم مزقوها وداسوها بنعالهم .. !!

وأصبح الصباح فى اليوم التالى . . وكانت القوات الفرنسية كلها قد تجمعت فى حى الأزهر وفى جميع الأحياء التى أعلنت الثورة . وأخذوا ينهبون الدور ويبحثون عن السلاح فى كل مكان . ثم أخذوا يبحثون عن الشيوخ الذين تزعموا الثورة فاعتقلوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طائفة العميان . والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ،

والشيخ يوسف الصيلحى ، والشيخ اسماعيل البراوى وحبسوهم فى بيت البكرى بعض الوقت ، ثم نقلوهم فى الأغلال إلى القلعة .

وقصد الشيخ السادات ، ومعه بعض كبار المشايخ بالأزهر إلى القائد الفرنسى ، وطلبوا منه العفو عن الشيوخ المعتقلين ، فأمهلهم بعض الوقت وفى كل يوم كانوا يذهبون إليه متشفعين ، فيمهلهم حتى يستقر الأمن . وبعد خمسة عشر يوماً انكشفت الحقيقة عن جرم الاستعماريين ، فقد وجدت جثث الشيوخ الخمسة مطروحة وراء سور القلعة ، بعد أن قتلهم الفرنسيون ، ومثلوا بهم أشنع تمثيل ؛ ذلك لأنهم ارتكبوا أشنع جرم فى حق أبناء المدنية الفرنسية فطالبوا بحق أمتهم فى الحرية والحياة » .

* * *

وما كان للقاهريين أن يرضوا الاستعمار ، ويقيموا على ذله وضيمه . فلم يمنعهم فشل ثورتهم الأولى أن يقوموا بثورة أخرى على رأسها الثائر المصرى « عمر مكرم » الذى أقام المتاريس .. وحفر الخنادق .. وتفقد المصانع . مصانع القذائف المصرية التى أنشأها المصريون ، وقدموا لها وقود كل ما قدروا على جمعه آنئذ من نحاس وحديد وذهب ومعدن . واستمرت المقاومة عاتية عنيفة قرابة شهرين . .

ثم بدأت قوتها فى الضمور والاضمحلال حينما بدأت الذخيرة المصرية تقل ، وحينما قصرت طاقات مصانعنا البدائية السريعة عن أن تمد يد الثورة بالسلاح وبالذخيرة اللذين هما عصب كل مقاومة ..

ولم يكن بد آنئذ أمام الثوار القاهريين من التسليم !! بعد أن تهدمت

البيوت واستشهدت مئات النفوس ، وقوضت الأحياء قنابل الفرنسيين الذين لم يرعوا فى قتالهم أبسط مبادىء الشرف والإنسانية ..

* * *

واتجهت فرقة فرنسية بقيادة الجنرال « ديزيه » إلى الصعيد ، لإخضاع بقية البلاد المصرية ، ولمطاردة فلول المماليك فى الوجه القبلى ، ولتفتيت قوى المقاومة الشعبية .

وسارت بقيادة ديزيه إلى بنى سويف فى ١٦ من ديسمبر سنة ١٧٩٨ وكادت قواته تباد وتسحق لولا قوة المدفعية الفرنسية .. ولقى الفرنسيون مقاومة فى كل مكان .. لم تستسلم أية قرية إلا بعد مقاومة ومدافعة . . وظل أهالى بنى سويف شوكة فى جنب الفرنسيين بعد احتلالهم للمدينة ؛ كتب الجنرال « ديفو » أحد القواد الذين رافقوا الحملة وسجل أحداثها ومراحلها فى مذكرات قال فيها : « إننا فى حملتنا على الصعيد استهدفنا لأخطار كثيرة كبيرة .. كلما دخلنا بلدة أسرع أهلها يحملون السلاح لناهضتنا ومقاومتنا ، وأخذوا يشعروننا بجميع الطرق بما يكنون لنا من كراهية بالغة » .

وسجل التاريخ أن « ديزيه » ترك بعض رجاله فى بنى سويف واتجه فى حمله نيلية إلى أسيوط ، فهجم الثوار من بنى سويف على مخازن الفرنسيين واستولوا على ما وجدوه فيها فاضطر نابليون إلى عزل الحاكم الفرنسى وعين آخر مكانه . .

وعلى مسيرة عدة كيلومترات من بنى سويف تقع قرية «الفقاعى»[1]

---

(١) وهى قرية من قرى مركز ببا بمحافظة بنى سويف .

حيث كتبت على أرضها أروع قصة فداء قام بها حدث من أهلها لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره .. كتبها بدمه وقوة إرادته وتحمله . . وسطرها بجرأته وعزمته ونفسيته التي لا تلين . . ورواها التاريخ رمزاً لومضة فدائية لمعت في قوة وسرعة على أرض البطولة المصرية .

ونقدمها اليوم نبراساً يسير على هداه نابتة العرب وناشئة المصريين الذين نعدهم لتحمل تبعات ثقال تفرضها عليهم هذه الآونة التي يمرون بها.. آونة زراعة الرجال . . وبناء النفوس . . وتسليح الأفئدة . . وتربية العزائم . . وتوجيهها الوجهة المثالية الصالحة التي تسير بها قدماً نحو الغاية والأهداف المبتغاة لها .

وكانت قصة بهرت ببطولتها هؤلاء الغزاة الفرنسيين الذين قدموا من أوربا يحلمون باستعباد شعب مصر واستنزاف دمه واستغلال موارده ...

وفرض عليهم ذلك البطل الصغير أن يعترفوا بشجاعته ، وأن يتحدثوا عنها في هذه الكتب الفرنسية التي أرخت هذه الحقبة التي قضوها في ربوع القطر المصري وعلى ضفاف وادي النيل تظللهم راية الإرهاب ، ويحميهم سيف الغلبة والبطش والعدوان ! !

فاعترف الجنرال « بليار » الفرنسي الذي رافق الحملة وسجل شجاعة هذا الفدائي المصري ، وتنبأ له بمستقبل مرموق إذا ما عنى بتربيته وتوجيهه .

كما روى « فيفان دينو » قصة هذا الفتى المصري في رحلته التي ألف عنها كتابا أسماه « رحلة في الوجه البحري ومصر العليا أثناء حرب

بونابرت » . وبعد أن رسم هذه القصة بأسلوبه ، رسمها بعد ذلك وصورها بريشته فى لوحة سجلها فى صفحة ٣٧٣ من هذا الكتاب . .

إن أرضاً أنجبت ذلك الفدائى الصغير لن يستبيح حماها دخيل . .

إن أرضاً أنجبت ذلك الفدائى الصغير لن تسمح لمعتد أن يتنسم هواءها أو يستظل بسمائها أو تهيئ له مقاماً ينعم فيه بفرض سطوته وغشمه وسلطانه ، بل تجعل له فى ثراها رمساً تهيل عليه ترابها الطاهر تدفن تحته الرجس والاعتداء ، والظلم والجبروت . .

وبالقرب من قرية « الفقاعى » عسكرت فرقة من جنود الفرنسيين ، وضربت خيامها فوق الأرض الخضراء وداست بأقدامها الدنسة النجسة نبات الأرض الزكية الطاهرة فأحالتها بعد سويعات أرضاً جرداء تضج بما عليها ومن عليها من دخيل غاصب . .

وأقام الفرنسيون حول مخيمهم نطاقاً من حراس غلاظ شداد ، شاهرى أسلحتهم ، يطلقون قذائفهم على كل من يقترب من معسكرهم من إنسان أو حيوان ! !

ومر على الفرقة يوم وبعض يوم ظنت خلاله أنها انتصرت ، بعد أن رأت الهدوء يلف القرية ، وما كان لأهالى « الفقاعى » أن يصبروا على هذا الضيم ، وأن يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء هؤلاء المغتصبين . . وما كان لهم أن يصبروا ، وهم الذين تفيض نفوسهم عزة وإباء وحماسة وشمماً . . وهبط الليل . . وتحت أستاره تجمع أهالى « الفقاعى » على مصطبة متآكلة تضم شيوخاً وشباناً . . الشيوخ بتجاربهم . . والشباب بعزائمهم وقواهم . .

وأتمروا يقلبون وجوه الرأى .. والكلمات تنطلق من أفواههم كالقذائف سريعة متوهجة ، تعبر عما يجيش فى صدورهم من غليان وتحرق ، لملاقاة الأعداء وسحقهم وإبادتهم .

كانت القرية — ككل قرى القطر المصرى آنذاك — تعيش فى أوهام وظلمات صنعها الدخلاء والحكام الأجانب الذين كانوا يحكمون مصر يومئذ .

كان الحكام الأتراك فى ذاك الوقت قد جردوا الشعب من السلاح وللدافع والقذائف والطلقات النارية ، وجعلوها وقفاً عليهم وعلى حراستهم وحراسهم وجنودهم المرتزقة الذين كانوا يجلبونهم من شتى البقاع ليحموهم من غضب الشعب المصرى ومن انتقام الأهالى وللواطنين .

ولم تعرف القرى شكل السلاح ولا نوعه ، فضلا عن استعماله والتدريب عليه ! !

وللمصرى إن تجرد فى ذاك الوقت من المعدات الحربية وأدوات الطعن وآلات القتال والضرب إلا أنه لم يتجرد من عزمه القوى وحماسته المتأججة فى أعماقه ، ورغبته الصادقه العارمة التى تفعل الأعاجيب إذا ما دوى النفير ، أو نادى منادى الجهاد ، عزيمة عارمة ضارية كالإعصار المبيد الجارف لا يقف فى طريقها شىء ، وحماسة تجرف الغشم وتبيد الطغاة ، وتطيح الدخيل المغتصب . .

وصاح شاب مفتول الذراعين متين البناء :

— الواحد منا بعشرة من صنف هذا الأجنبى الرخو ، الذى إن

تجرد من سلاحه أطلق ساقيه للريح ، أو خر على قدميه يذرف دموع المذلة والاستعطاف .

وعقب عليه ثان :

— إنها فرقة كاملة بعددها ومعداتها ، ولو كان الأمرأمر مجابهة ولقاء فرد بفرد لمزقناهم شر ممزق ، ولأبقيناهم أثراً بعد عين . إلا أنهم يحملون سلاحاً جديدا فاتكا مبيداً لم نتدرب عليه ، بل لا نعرف كيفية استعماله . ووسائلنا فى الدفاع بدائية ، فماذا تغنى العصى الغلاظ أو الفئوس الحادة أو السيوف القواطع أمام طلقات رشاشة وتجاه قذائف تحصد الأرواح فى لحظة ! !

وقال شيخ على وجهه آيات الصرامة والعزم :

— إننا لا نرضى الدنية . . ولا نرضى أن تمس عروبتنا وعقيدتنا ، وإن شرفنا ليأبى أن تعكره تصرفات هؤلاء الغربيين الحمق ، الذين لا يعترفون بخلق ولا شرف ولا ضمير . . لا نرضى أن تتفتح عيون أبنائنا فى مطلع كل صباح على رؤية هؤلاء . . ! ! ولا نرضى أن تكون نساؤنا نهباً لنواظرهم ، فضلا عن أن دماءنا التى تفور فى عروقنا تأبى بعد ذلك كله أن تسكت على غاصب يستعمر أية ذرة فى بلدنا ، فلا بد أن يجلو الغاصب وأن يرحل ، لا عن أرض القرية فحسب ، بل عن أرض مصر كلها . .

وصاح صائح :

إن الموقف يتطلب العمل ، والعمل الحاسم السريع .

وأجابه آخر :

العين بصيرة واليد قصيرة ، فماذا نفعل ؟

أمعنى ذلك نستكين إلى العدو ونرضى أن يحطم قوانا ويهين مقدساتنا ، ونحن نجتر آلامنا فحسب ؟ !

ما كان لعربى أن يتباطأ أو يتنحى عن القيام بدوره فى أحلك ساعات العسرة « إن ماضينا يشهد كيف قاومنا جيوشا من الغزاة كانت تفوقنا عدداً وعتاداً وعدة . . وكيف انتصرنا عليها بروحنا وبإيماننا وبحقنا فى العيش الحر والحياة الكريمة ،إننا الشعب منذ القدم حرب ضروس فانية تبيد كل من يعادينا ، أو تسول له نفسه انتهاك حمانا .

لو كان الأمر أمر فرد إزاء فرد ، أومجموعةفى مقابلة مجموعة .. لو كان الأمر أمر سيف فى مقابلة سيف أوفى مقابلة سيوف لكتب لنا إيماننا وحماسنا الغلبة عليهم . . ولكن الكثرة الكثيرة التى لا سلاح معها لاتستطيع اليوم مقاومة قلة تفوقها عدة وسلاحا ! !

وماذا تجدى الكثرة أمام سلاح حديث فاتك مبيد ؟ ! إن الفئوس لا تستطيع مجابهة المتفجرات ، إن الحماسة المتفجرة من أعماقنا إن لم تعززها العدة فلن تصمد شيئا أمام منجل القذائف .

إذن لا مفر لنا من أن نقابل القوة بالقوه . .

ولكن كيف ؟

وساد صمت عميق ، ونظر فتى صغير اسمه « عبد الستار » إلى وجوه القوم يتأمل ويتصفح ، شاهد الأسى على الوجوه ، وكاد يسمع

غليان القلوب وهى تضطرم وتفور ، وسمع والده « آدم الفقاعى » يصيح فى غيظ مكبوت :

لو كان معى ما أستطيع ملاقاة العدو به لأذقته المنون . . لو معى بندقية واحدة لحصدت بها عشرات من أرواح هؤلاء الكفرة الفجرة . .

وانفض الجمع بعد أن قلبوا وجوه الرأى ، آملين أن تكون مع الغداة بارقة أمل ، بعد أن أسقط فى أيديهم ، وبعد أن تقطعت بهم الأسباب ، وبعد أن لم يكن فى مكنتهم إيجاد حل إيجابى سريع يجابهون به الموقف الطارئ . .

وانصرف آدم الفقاعى . . ومن خلفه ابنه عبد الستار يسيران فى صمت إلى البيت ، يلفهما ظلام رقيق ما لبث أن انقشع تحت نور القمر الساطع فى تلك الليلة القمرة ..

كان كل منهما يفكر وهو ماض فى طريقه . . الأب يفكر لعل تفكيره يهديه إلى تحقيق رغبته والحصول على أمنيته ، فيتسلح ببندقية أو بقذيفة . . أية بندقية . . أو أية قذيفة مهما كان نوعها ! ! وكان الولد بدوره يفكر .. يفكر فيما سمعه منذ هنيهة من والده . .

وطرقت قلبه طرقاً عنيفاً ولأكثر من مرة عبارة والده ورددها ضميره ، لو معى بندقية واحدة لحصدت بها عشرات من أرواح هؤلاء الكفرة الفجرة . .

واقتربا من المنزل .. ودخل الوالد .. ومن ورائه فتانا الصغير ، ونفسه تحدثه بأن يتراجع وأن يمتنع عن الدخول ، وأن يتعلل لوالده بأية علة

أو يعتذر بأى عذر . . ولـكنه خشى ألا يقبل والده عذره ، فلم يكن أمامه إلا الدخول . ودخل على مضض ، واستقبل بقية ليله بقلق . . وكيف يهجع وقومه فى مأزق ؟ وقلبه فى وجيب . . ووالده فى يأس وترقب وغضب ؟

وتقلب فى مضجعه ساهرا مسهد العين محموم الفـكر . .

وانقضت فترة نهض بعدها واقفا . . وفى خفة وحذر كان خارج المنزل وتلقفه الطريق وحيدا إلا من فـكرة . . فـكرة راودت ذهنه ، وسرعان ما عقد عزمه عليها ، تجربة انتحارية . . خططها وحده ، وهو ساهر الجفن قلق النفس . خطة لمعت فى ذهنه وهو يتململ فى مضجعه ، فصمم على تحقيقها .

وماذا تراود الصبي من أفـكار إلا أفـكار ساذجة صبيانية . . إلا إذا كان الصبي من طراز يخالف لداته عقلا وإرادة وعزما وتصميما ، ورحابة أفق وحدة ذكاء . .

سار عبد الستار فى خطوات محمومة سريعة ، وكأنه يجمع أفـكاره ويضمها فى حرص محاولا إخفاءها حتى لا يكشف سرها أحد . .

سار تحت ضوء القمر البازغ ، وتحت لفحات من رياح أمسيات شهر ديسمبر الباردة للوخزة المؤلمة التى تلسع الوجه وتهز الجسد .

ولـكن أين هو ذاهب فى هذا الوقت المتأخر؟ وما هى وجهته ؟ . .
وما لبث أن تريث . . ثم توقف حينما وقع بصره على معسكر الفرنسيين هادئا هدوء القبور ، وقد انتثرت بداخله خيام متقاربة ، يقبع

بداخلها جنود آمنوا فناموا ملء الجفون ، معتقدين أن الأعزل من السلاح لا يستطيع المقاومة ، وأن الشعب المصرى الذى جرده حكامه الأتراك والمماليك من السلاح سيقف مكتوف اليدين ، سلبيا ، يبارك المنتصر ويخضع له ! !

واقترب عبد الستار من المعسكر . . وما هى إلا خطوات حتى كان بداخله . . إنه يتقدم إلى الموت بقدميه ، بل إنه قاب قوسين أو أدنى منه إنه أمام واحـــد من حراس المعسكر قد تدثر بغليظ الملابس وثقيل الثياب ، ليتقى لفحات البرد فى هذا الوقت المتأخر . . ورآه الفتى وتقدم منه ولولا غطيط ثقيل يصدر منه لحسبه عبد الستار تمثالا يحمل بندقية من خشب فى يده . . وراودت الصغير أنئذ أكثر من فكرة ، أيقتل الجندى بهذا الحجر المدبب الذى يجمع قبضته الصغيرة عليه ، منذ أن التقطه من أرض بعيدة عن أرض المعسكر ؟ أم يستولى على بندقيته ويقدمها هدية لوالده ؟ وكيف يقتله ولا سلاح معه إلا الحجر إن لم يؤد الحجر مهمته على خير وجه ؟ وهل تجهز ضربة واحدة من هذا الحجر الصغير على هذا الجسد الثقيل . . ؟

ثم إن بندقية واحدة لا تليق فى نظره أن تكون هدية . . بل لا بد أن يهدى أكثر من واحدة لأهالى بلدته . . وشخص ببصره غير بعيد فرأى كومة من البنادق مجتمعة متعانقة متشابكة الأطراف واتجه الصغير إليها ، وفى حذر وتيقظ أخذ يلمها ويجمعها ، ولكن كيف السبيل إلى حملها ؟ وفى حركة لا إرادية وجد نفسه وقد خلع ثوبه وأخذ يفتله بين

كفيه ، ثم أدخل طرفه الأول فى سيور البنادق الجلدية وعقد نهاية الطرف الآخر على الطرف الأول . .

وحمل مااستطاع حمله . . وسار بحصيلته وهو ينوء بحمله . . أنفاس مبهورة ، وقلب يدعو الله ألا تنطلق رصاصة تحول بينه وبين تقديم هذه الهدية الثمينة التى يحملها إلى أهله ووالده ، ومر مرة أخرى بجوار الحارس الذى ذهب غطيطه وتلاشى بعض الشىء فى أصوات الريح الباردة .. وتقاربت خطوات الصغير . . وما أن صار منه غير قريب حتى أسرع يخب فى سيره وجبينه يتفصد عرقا برغم برودة الجو ! !

وفى المنزل وضع حمله .. والتقط أنفاسه ، وركن إلى الحائط يسند ظهره ؟ ليستريح بعض الشىء . .

ومضى يوم . .

وتبعه أيام . .

وفى ليلة هب الفرنسيون مذعورين من نومهم .. وغادروا مضاجعهم ، وفى أعينهم بقية من نعاس تثقل أطرافهم ، وتعمى عقولهم ، وتطيش صوابهم عن معرفة حقيقة الأمر . .

تلك الحقيقة التى لم يقبينوها إلا بعد أن اصطدم بعضهم ببعض . . وإلا بعد أن شاهدوا نيران الطلقات وسمعوا أزيز الرصاص يدوى فى الجو ويبرق أمام أعينهم ويردى البعض منهم . . وتأخذهم الحيرة ويستبد بهم العجب ، من يطلق ذلك الرصاص وأهالى القرية على مرمى بصرهم لايملكون طلقة ! ؟ من هو الذى تبلغ به الجرأة على مهاجمتهم وأهالى

القرية بجوارهم لم يروا منهم بادرة تمرد أو عصيان ؟ وليس لديهم جيش أو معدات ، وليست لهم خبرة بفنون الحرب وأساليب القتال ؟

وما أن هموا برد الاعتداء عليهم حتى وجدوا الطلقات قد سكنت وللهاجمين قد انسحبوا ، ولم يجدوا أثراً لمهاجم ، ولم يتركوا وراءهم مايدل عليهم . .

وشغلهم عن الزحف إلى القرية والانتقام من أهلها احتضار ضابط كبير منهم قد اخترقت إحدى الرصاصات جسده فجعلته بين الموت والحياة .. واجتمعوا حوله . . يحاول أطباؤهم أن يعيدوا إليه دفقات الحياة . . واستخرجوا الرصاصة من جسده بعد أن خمدت فيه أنفاس الحياة وصار جثة لاحراك بها ولا حس .

وقال ضابط فرنسي فى دهشة :

— عجباً ، إن هذه الرصاصة من ذخيرتنا .. رصاصة فرنسية مما نحمله معنا ، إنه لعار مابعده من عار أن نقتل برصاصنا !!

— علينا أن نعيد توزيع الحرس ، وأن نعزز رجاله ، ونفرض حراساً متيقظين يحمون المعسكر ، ويصونون الأرواح ، ويبيدون كل من تسول له نفسه التلصص أو الاقتراب .

وانتشر الحراس الكثيرون فى كل ركن من أركان المعسكر ينتظرون عودة الهاجمين . وطال بهم الانتظار بعد أن مرت أيام وليال لم يعتد عليهم أحد ، ولم يقبضوا على أحد .

وما منعهم من الهجوم على القرية — بعد ذاك — إلا رؤيتهم لما

غارقة فى الأمن والدعة ، فأرادوا هم بدورهم أن يكسبوها ، ويخطبوا ودها — إلى حين — حتى تتعاون معهم ، وتمدهم بما يحتاجونه من خيرات الأرض .. ولكن أملهم لم يدم طويلا . . !! إذ تفقد بعض الجنود بنادقهم فلم يجدوها . . وبحثوا عن ذخيرتهم من الرصاص الحى فلم يعثروا لها على أثر.

وهب عديد منهم يصيحون :

أين بنادقنا ؟ هل ابتلعتها الأرض ؟ هل اختطفها جان بعد أن غطى على أبصارنا ؟ ويجوبون أرجاء المعسكر باحثين منقبين معلنين أنفسهم بشتى التعلات . . ولم يعد هناك مجال للحدس والافتراض بعد أن نقصت البنادق بشكل ظاهر ملموس وبعد أن زاد عدد المفقود منها . . . لقد تيقنوا أنها عصابة ، فليس هذا عمل واحد ، بل عمل جماعة وعصابة ، لها مخطط مدروس ، و « تكتيك » موضوع . . إنها عصبة ما فى ذلك من شك ! ولكن هل هى عصبة من الجن ، والأشباح غير المرئية تتسلل فلا يحس بها أحد ، وتأخذ من غير أن يشعر بها حارس أو رقيب ؟ !

وأعدوا العدة . . ووضعوا المخططات ، لتقع فى قبضتهم هذه الجماعة المعتدية . .

ولم تصل أيديهم إلى شيء رغماً عن تربصهم كل ليلة لهذه القوة التى تخيلوا أنها تتسلل لمعسكرهم ، وتلم بنادقهم ، وتجمع رصاصها . .

وفى كل ليلة كان الحراس يقفون مترقبين ، ليقبضوا على العصابة التى ظنوها ، ثم لم يكن يحظون فى النهاية إلا بالسهر المتواصل . . ثم بالصمت الصمت المطبق المحيط بهم . . ! !

والنجاح يدفع إلى النجاح .

ومادام « عبد الستار » قد راد الطريق من قبل . فلابد أن يروده مرات ومرات وقبل أن يتنفس الصبح ، ويستيقظ القوم عاد مرة أخرى إلى المعسكر . . عاد بمفرده . . بعد أن أوصى والده ألا يخبر القوم بما صنع . . وبعد أن أقنع والده أن من الخير لقومه أن يجهلوا الطريقة التى استحضر بها السلاح ، وما عليهم إلا أن يتدربوا على استعمال ذلك السلاح وما دام عمل الجماعة يقوم به فرد . . ويؤديه بنجاح فليقم هو بمفرده بهذه المهمة ، وليمض فى الطريق إلى النهاية . .

ومرة أخرى . . وبعزم أقوى ، وخطوات أثبت . . وحذر أكثر تقدم عبد الستار إلى المعسكر ليعيد الكرة . . وسرعان مالمحه أحد الحراس الفرنسيين ، فتعقبه . . وتتبعه .. ورآه وهو يستبيح حمى المعسكر ورآه وهو يتجه إلى السلاح . . ورآه وهو يلمه ويجمعه وتطلعت عينا الفتى فجأة من خلال ما يحمل . . فشاهد الحارس مقدما عليه . وأسرع إلى انتزاع بندقية مما يحمل ليفرغ رصاصها فى صدر الحارس إن استطاع ، فهو لم يتعود كيفية إطلاق النار منها من قبل . ولكن الحاجة تفتق الحيلة . . إذن فليحاول . .

وما أن رفعها بين يديه حتى أسرع الحارس إلى جذب سيف من منطقته وهوى به على ذراع الفتى فجرحه وأدماه وأسقط البندقية من يده ، وسال الدم غزيرا من ذراع فتانا وأطبق الحارس على الذراع الأخرى بقوة وساق الفتى إلى القائد الذى قال له :

— ماذا فعلت ؟

— لم أفعل شيئا غير ما يمليه علىّ واجبى .

— أنت حدث صغير لا يعقل أن تقوم بهذا العمل وحدك ، فمن هم شركاؤك ؟

— ليس لى شركاء إلا ما أملك من عزيمة ووطنية ، وإيمان بحق بلادى فى العيش الحر ، والحياة الكريمة .

— ما الذى دفعك إلى هذا الصنيع ؟

— أن أبيد من أرضنا الطاهرة مظاهر الدنس والرجس ، لتبقى بلادنا خالصة لنا ، لا يقاسمنا فيها شريك مستغل ، أو دخيل مستذل .

— أصدقنى القول خير لك . . من أمرك بهذا ؟

— الذى أمرنى بهذا ربى ، وهو الذى أمر كل مجاهد قادر على حمل السلاح أن يشترك فى هذه الحرب المقدسة وأن يدفع ضريبة الوطنية والدم قرباناً لحرمة بلده وكرامة أهله .

— من كنت تريد أن تقتل بهذا السلاح الذى خطفته ؟

— كل من أستطيع قتله . . ولو استطعت قتلك لفعلت .

بهت « ديزيه » ونفذ صبره ، وتصاعد الدم إلى وجهه وتطاير الشرر من عينيه وقال محتدًّا :

— سأنزل بك الآن عقاباً صارماً يجبرك على الإفضاء بما تخفى ، ويحملك على الإفصاح عما لا تريد أن تبوح به .

— قبل أن تهددنى بعقاب إليك رأسى فأمر بقطعه .

— ألا تخشى شيئا ؟

— إن من يقدّم رأسه لا يضيره ما سينزل به .

وتحير « ديزيه » فغير من لهجته ، ولجأ إلى سلاح الإغراء واللاينة لعله يفلّ حدّهُ هذا الصغير ، أو لعله يجدى ويؤثر فى نفسية هذا الغلام ، فقال :

— أنا أعلم أنك صغير لا تدرى عاقبة ما فعلت ، وسأعفو عنك . . بل سأعطى لك كل ما تطلب ، وسأمنحك كل ما تريد . . وهذه نقود لك منها ماشئت وأكثر . . خذ . . خذ منها ما تريد . . بل خذها كلها .

وقلب بين كفيه نقوداً تماوجت فكان لها رنين ولمعان . .

ونظر الغلام نظرة احتقار إلى كفىّ ديزيه المملوءتين بقطع النقود . . ثم رفع بصره النارى وصوّبه إلى ناظرى « ديزيه » وقال فى ثبات .

— دعوا النقود لكم ، فلا أطلب إلا رحيلكم عن أرضى وجلاءكم عن وطنى .

ورأى « ديزيه » أنه أمام شخصية قوية ، وعقلية تكبر عمرها بكثير لا يثنيها وعد ولا يخيفها وعيـــد ، شخصية صلبة فلابد أن يلينها بصارم العقاب .

أراد أن يهزّ تلك النفسية ، وأن يميت صاحبها موتاً بطيئاً ، ليهدم هذه القلعة المنيعة التى تفيض عزّة وشموخاً وكرامة . . ويهدم ذلك الحصن المنيف حجراً حجراً بدلا من أن يبيده فى لحظات ، ليشفى غليله . .

وأمر جنده أن يكشفوا ظهر الصبى . . وسرعان ما جرّدوه من

ملابسه إلا من سرواله . . ثم أمر بإحضار السوط . . سوط ذى ثلاثة شعب جلدية رفيعة الطرف غليظة الساق . .

وتقدم الجلاد الفرنسى يحمل السوط ويطرقع به فى الهواء ، فيسمع لها صدى مخيف . . وأخذ يقترب فى خطوات ثقيلة نحو الصبى الثابت الصابر . .

ونظر « ديزيه » إلى الصبى لعله يسمع منه معذرة .. أو يرى فى عينيه نظرة تضرع أو ندم ، أو تند منه صيحة فزع وجزع .

وجن جنونه عندما رأى أمامه شخصاً يملك جأشه ، ويضغط على أسنانه ليئد صيحة قد لا يحتملها فؤاده ، أو لا يقوى على كبتها جنانه .

وهوى أول سوط ، والتفت شعبه فى قسوة حول الجسد الصغير ..

وتتابعت الضربات . . واهتزت يد الجلاد . . وصمد الجسد الصغير . .

وارتفعت حواجب الجنود دهشة . . وارتسمت على وجوههم آيات العجب وهم يرون أثر السوط على الجسد وصاحب الجسد جامد كالطود . .

ثم كلت يد الجلاد بعد ما ظل يهوى بالسوط فى ضربات محمومة مجنونة بلغت الثلاثين . . ولم يصرخ الصبى . . ولم يبك .. ولم يرتفع له صوت من نشيج .. ولم تتحرك فى جسده جارحة !! أية قوة هذه التى تسكن فى هذا الجسد الصغير ؟ ! .. وأية عزيمة يتحصن بها هذا الصبى ؟ ! لقد بهرتهم قوة جسده وشدة تحمله ، بعد أن بهرتهم ذلاقة لسانه ، وبلاغة منطقه . . إنهم أمام معجزة . . أمام أمر خارق على غير ما اعتادوا ، وعلى خلاف ما ألفوا ...

ولـكنهم ما دروا أنهم فى أرض المعجزات . . أرض الشرق مهبط الرسالات ، ومنبع العقيدة والوطنية والمبادئ والقيم .

إنها البطولة العربية والوطنية المبـكرة ، والنفس التى لم تتلوث أو تتلون .. النفس التى رضعت لبان العروبة الحقة ، وتغذت برفيع المثل وكريم الأخلاق .

إنه نبت قوى أنبتته أرض القطر المصرى لا تزعزعه أعاصير عاتية أو رياح هوجاء . . إنه غصة تعترض حلق كل معتد أو غاصب .

إنه لغز من ألغاز الشرق . . وروح من روحانيته . . وأنى للغرب أن يحسها أو يعيشها ، وهو الذى جرفه طوفان المادية والأنانية فأبعده عن الروحية والمثالية ! ! . .

وانهارت المادية الغربية وتهاوت أمام الروحية الشرقية فلم يكن بد أمام ديزيه إلا أن يطلق سراح البطل المصرى الصغير . .

وعز على القائد أن يستسلم هكذا أمام هذه الطفولة..وكبر عليه أن يلقى سلاحه . . ولـكن ماذا يفعل بعد أن سد عليه المصرى المسالك والسبل ؟

هل نفد كل ما فى جعبته من وسائل التعذيب والتشفى والانتقام ؟ !

إن هذه السياط لم تشف غليله ! ! فلا بد من انتقام آخر . . انتقام سريع .

وانطلق « عبد الستار » موليا وجهه شطر قريته يسير بخطوات ثابتة ، وقامة منتصبة ، ورأس شامخ ، وبجوار أذنه مرقت رصاصة أطلقها « ديزيه » لعلها تحطم كيان الصغير ، وتهز بنيانه ، فتشفى غليل القائد والذين من حوله ! !

وكانت هذه الرصاصة آخر سهم يطلقه القائد من جعبة حيلته وانتقامه ..

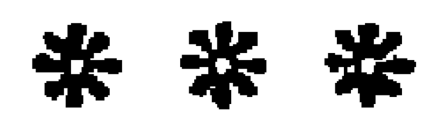
ومرقت الرصاصة واستمر الفتى فى سبيله . . وعلى الطريق خطواته الثابته ، لم يطلق ساقيه للريح فى وجل أو ذعر . . ولم يصرخ . . ولم يفزع . . ولم يلتفت إلى الخلف . . لم يعبأ بالرصاصة تئز بجدار أذنه ، وكأنها فى نظره . حشرة تافهة حقيرة لا خطر لها ولا أثر ..

وهكذا المؤمن لا يعرف الخوف لأن الله يحميه . .

وظل يسير ويبتعد فى سيره عن أنظارهم حتى ابتلعته طرقات القرية ..

وتمتم « ديزيه » رغماً عنه بقوله :

— ما أروع الروح المصرية ممثلة فى هذا الفتى المصرى الصغير ، وما أروع الوطنية الحقة مجسمة فى هذا الصبي الذى لو أحسن تربيته وتوجيهه وتعليمه لفرض نفسه على الزمن ، ولكان شخصية عالمية يدون التاريخ سيرتها بفخار وإكبار .



ولم يتحدث التاريخ بعد ذلك بشيء عن هذه الشخصية المصرية . .

تلك الشخصية الفدائية سليلة الفدائيين العرب الذين أحبوا الموت كما أحبوا الحياة ، الذين فعلوا الأعاجيب ، وصنعوا المعجزات ، فعبروا الأنهار واقتحموا الخنادق . . ومرقوا فى حصون الأعداء ينقبونها ويفتحون ثغورا بها يعبر منها زملاؤهم . . ولم ينتظروا على ما فعلوا جزاء ولا شكورا .

وسليلة الفدائى العربى « البراء بن مالك » الذى اعتلى سور حديقة الدعى « مسيلمة » الذى زعم كاذبا أنه نبى من عند الله .. وفتح « البراء » بابها فدخلها المسلمون وأجهزوا على المتنبى الكذاب ، وقضوا على دعوته بعد أن قضوا على أشياعه وأتباعه . .

وسليلة البطل الفدائى « الزبير بن العوام » الذى تسور حصن « بابليون » عندما قضى العرب على الاستعمار « الرومى » فى أرض مصر الطاهرة .

ومن سلالة ذلك الجندى العربى الفدائى الذى كان تحت إمرة القائد « مسلمة بن عبد الملك » والذى بات وحده يحرس نقبا فى سور الأعداء أحدثه المسلمون . . ثم خيم الظلام وعوت الريح . . وأظلمت الدنيا . .

وكان هناك ساعدان قويان يعملان بهمة وحماسة لتوسيع الثغرة وهدم السور . .

وانجلى الفجر . . وهدأ المعول . . وأصبح المسلمون فوجدوا النقب قد اتسع فتمكن الجيش الإسلامى من الدخول منه مما أدى إلى سرعة انتصارهم

ولما انجلت المعركة نادى القائد مسلمة فى رجال جيشه :

— من صاحب ذلك العمل ؟

وانتظر برهة ، ولم يجبه أحد ، ولم يخرج إليه من الصفوف أى جندى.

وأعاد القائد نداءه مرة وأخرى من غير ما جواب .

وبدت أمارات الدهشة والعجب على الوجوه جميعها ، وأردفه القائد العربى :

— أنا أعلم أن صاحب هذا العمل شجاع ، لايبتغى لنفسه أجراً ولاذ كراً ، وأعلم أنه ما قام بما قام به إلاباندفاع من بطولته وشممه وعزته وعزمه ، واستجابة لشجاعته ونزعته الدينية ،وأنه لم يقم بما قام به إلاتقربا لربه ، وإنى أحترم كل هذه المعانى التى دارت فى نفسه ، وليس لى من رجاء تجاهه إلا أن يقدم لى نفسه فى أى وقت يشاء .

ومرت ليلة وتبعتها ليال . .

وجاءه فى أمسية من الأمسيات رجل قال له :

— أنا أعرف صاحب النقب ، لكنه يشترط عليك شروطاً .

ألا تخبروا أحداً باسمه . .

وألا تذكروا اسمه فى صحيفة إلى الخليفة أو غيره ..

وألا تسألوه عن اسم أبيه أو اسم قبيلته ..

وألا تأمروا له بمكافأة ! !

ولما استجاب القائد لكل هذه الشروط ، وأعطى وعداً بتحقيقها قال له الرجل :

— أنا صاحب النقب !!

ثم انصرف مسرعاً ..

وازداد الرجل إكباراً فى عين القائد العربى الذى همس فى خشوع :

« اللهم اجعلنى مع صاحب النقب »

ولا غرو أن رأينا بعد ذلك كله . في عهد انتفاضتنا الحالية وثورتنا القومية الواعية آيات من هذه الفدائية المصرية التي كتبت على أرض اليمن السعيد أروع صفحات النضال ضد قوى الغدر والرجعية ، وفلول الملكية البائدة من أسرة حميد الدين ، وأكدت للعالم أجمع أن فدائيي الجمهورية العربية المتحدة وأبطالها قادرون على حماية ثورات الشعب العربي في أي مكان من الأمة العربية بعد أن قضوا على أرض اليمن الثائر مائتي يوم أدوا خلالها رسالتهم على خير وجه ، وقاموا بواجبهم الوطني المقدس ، مقدمين أرواحهم على أكفهم ، باذلين دماءهم وأنفسهم رخيصة في سبيل نصرة الشعب اليمني الحر وفي سبيل التمكين لإرادته وحقه المشروع في الحياة الحرة العزيزة .

لقد كتب فدائيو الجمهورية العربية المتحدة على أرض اليمن وفي سهولها ووديانها وفي جبالها ووهادها أروع صفحات التضحية والفداء ضد القوات المعادية للحرية اليمنية تلك القوات التي كانت تريد أن تئد الحرية اليمنية وأن تقف في وجه المد الثوري ، مما أجبر الضمير الإنساني أن يكبر بطولاتهم ومما جعل العالم كله يتحدث عن خوارقهم ومعجزاتهم . . كتبوا بأعمالهم المجيدة وخطوا بدمائهم الزكية على أرض مأرب ، وصرواح ، وصعدا ، ورأس العرقوب آيات كفاح وعزة ستظل تدوى في أذن العالم شاهدة على النبل والشرف والعزة والإباء والشهامة والنجدة نجدة العربي لأخيه

العربى عند ما يتعاونان على الإبادة والتبديد .. إبادة الظلام وتبديد أنصاره وحوارييه . .

ولقد وجه إليهم رئيسنا جمال عبد الناصر خطابا فى عيد النصر العاشر قال لهم فيه :

« أيها الرجال البواسل . .

ولقد كانت أمتكم كلها يوم احتفالها بعيد النصر العظيم ، تتطلع إليكم ، وأنتم تؤدون واجبكم المقدس فى اليمن دفاعاً عن التاريخ العربى وعن المصير العربى .

إن الجماهير الضخمة التى التقيت بها يوم النصر فى بور سعيد .. كذلك كل جماهير أمتنا العزيزة العظيمة التى كانت تتابع يوم الذكرى الخالدة فى بور سعيد عاشت كلها معكم : إيمانا بالرسالة التى حملتكم إلى أرض اليمن الثائر ، وتقديراً للعمل الذى قمتم به فى شجاعة وإنكار للذات فى خدمة الرسالة . وإعجاباً بالنصر الذى حققتموه فى ظروف عصيبة عسيرة .

لقد انتصر بكم الحق العربى . .

وانتصرت بكم الثورة العربية طلباً للحق . .

وانتصر بكم الإنسان العربى فى اليمن طالب الثورة من أجل الحق» . .

وشعور الأمة العربية تجاه فدائييها ، وتجاه الصفوة الخالصة من رجالها هذا الشعور عبر عنه السيد الرئيس جمال عبد الناصر يوم إعلان قيام الدولة الاتحادية الكبرى بين مصر وسوريا والعراق فى رسالة وجهها إلى أبطالنا فى اليمن قال فيها :

« ولست أظننا جميعا فى حاجة إلى أن ننتظر يوم كتابة التاريخ ؛ لكى نقرر أن المعركة الباسلة والمنتصرة التى خاضتها قوات الجمهورية العربية المتحدة فى اليمن جنباً إلى جنب مع جيش اليمن الثائر كانت نقطة التحول الحاسمة فى حرب عنيفة ضارية خاضتها الأمة العربية كلها ضد الاستعمار والرجعية .

ولقد جاءت معرككتم فى وقت ظن فيه أعداء الأمة العربية أن زمام المبادرة فى أيديهم ، بعد نكسة الانفصال وجريمته ، لكن شجاعة الرجال البواسل تحت أصعب الظروف وأكبرها مشقة قبلت التحدى ، وأثبتت قدرتها على انتزاع النصر ، وانتزاع زمام المبادرة فى نفس الوقت من أعداء الأمة العربية ، وتسليمه فى تواضع رائع وإنكار للذات أصيل إلى جماهير الأمة العربية ، تواصل بعده صنع القدر بإرادة الله . . وترفع أعلام القومية العربية ، والوحدة العربية فوق بغداد ودمشق ، وتعيد أمل الوحدة إلى مكانه العزيز من حركة التقدم العربى الثورية .

وإنى لأعرف عن يقين شعور الأمة العربية كلها تجاه هذه الصفوة من رجالها الذين رفعوا مشاعل النور على أعلى الذرى فى اليمن ، والذين جادوا بالدم الزكى ؛ لكى تبقى شعلة الحرية التى أضاءت فى صنعاء فى فجر السادس والعشرين من سبتمبر الماضى بثورة شعب اليمن وجيشه ضد الطغيان والتخلف .

أعرف عن يقين أن الأمة العربية كلها تحتفظ لهذه الصفوة من رجالها البواسل بالحب والعرفان من أعماقها أن حققوا بالشجاعة إرادتها ، ومكنوا بالتضحيات ليوم نصرها الأكبر .

وفى اللحظة التى كان لى فيها شرف التوقيع على إعلان الوحدة فلقد كانت خواطرى كلها هناك مع الضباط ، وصف الضباط والجنود فى اليمن فى الأسلحة المقاتلة على البر وفى الجو وفى البحر .

لقد كانوا هم فى خواطرى وخواطر أمتنا العربية الخالدة ، وجنود الوحدة وأبطالها لقد ذهبتم جميعا وفوق رءوسكم علم وطنكم الصغير . . وها أنتم بعد النصر تبدءون رحلة العودة إلى الوطن وفوق رءوسكم علم النجوم الثلاثة .

التهنئة لكم يا رجال أمتكم البواسل . .

يا طليعة تقدمها المجيد .

يا جنود الثورة العربية الشاملة من أجل الإنسان العربى الحر . . »

لجنة

إخترنا للجندى

العميد: سيد عبد الحميد مرسى

العقيد أ.ح: عبد الغنى فرحات

محمد عطا : مقرر اللجنة

المقدم أ.ح: محمود طنطاوى

أسماء وأرقام الكتب التي صدرت من سلسلة

اخترنا للجندى

مسلسل	العدد	اسم الكتاب
١	الأول	الجندية فى ظل الميثاق
٢	الثانى	مكاسب الجندى الاشتراكية
٣	الثالث	خواطر عن الحرب
٤	الرابع	جيشنا الوطنى بين الماضى والحاضر
٥	الخامس	خالد بن الوليد
٦	السادس	لماذا يحاربوننا
٧	السابع	الابرة والصاروخ
٨	الثامن	الدور الخطير
٩	التاسع	فتح مكة
١٠	العاشر	إسرائيل وكيف خلقها الاستعمار
١١	الحادى عشر	لماذا أنت جندى ؟
١٢	الثانى »	الثائر العربى (عبد الرحمن الكواكبى)
١٣	الثالث »	قناتنا عادت إلينا
١٤	الرابع »	فداء . . قصص قصيرة
١٥	الخامس »	أحاديث فى الحرب
١٦	السادس »	انتصار ثورة اليمن

مسلسل	العـــدد	اسم الكتاب
١٧	السابع عشر	النهارده حاجة ثانية
١٨	الثامن »	قواتنا المسلحة : القوة الأولى فى الشرق الأوسط
١٩	التاسع »	أحاديث الجهاد والفروسية
٢٠	العشرون	رسالة الاتحاد الاشتراكى العربى
٢١	الواحد والعشرون	لنا .. ولمن حولنا
٢٢	الثانى »	غزوة بدر من امجادنا العربية
٢٣	الثالث »	الثورة الاجتماعية والميثاق
٢٤	الرابع »	دروس المقاومة فى غزوة الأحزاب
٢٥	الخامس »	هؤلاء أعداؤك
٢٦	السادس »	دمياط وكفاحها ضد الاستعمار
٢٧	السابع »	الأرض
٢٨	الثامن »	لماذا أنا جندى
٢٩	التاسع »	من روائع التاريخ العسكرى العربى
٣٠	الثلاثون	بطولات طائرة
٣١	الواحد والثلاثون	كلهم أبطال (قصص من الحرب)
٣٢	الثانى »	معركة النضال
٣٣	الثالث »	وحدتنا العربية
٣٤	الرابع »	الجمهورية العربية المتحدة فى المجال الدولى
٣٥	الخامس »	صفحات من بطولة الجيش العربى
٣٦	السادس »	عودة الأبطال من اليمن

مسلسل	العـــدد	اسم الكتاب
٣٧	السابع والثلاثون	صور قومية .
٣٨	الثامن »	من بيت الطين إلى المعمل الذرى .
٣٩	التاسع »	من أجل السلام
٤٠	الأربعون	أفريقية فى طريق الوحدة
٤١	الحادى والاربعون	مذكرات جندى عجوز
٤٢	الثانى »	وطننا الكبير
٤٣	الثالث »	صهيونية تدق أبواب أفريقيا
٤٤	الرابع »	إقامة جيش وطنى كبير
٤٥	الخامس »	طرائف عسكرية
٤٦	السادس »	
٤٧	السابع »	
٤٨	الثامن »	
٤٩	التاسع »	
٥٠	الخمسون	
٥١	الحادى والخمسون	
٥٢	الثانى »	
٥٣	الثالث »	
٥٤	الرابع »	
٥٥	الخامس »	
٥٦	السادس »	

مطابع الدار القومية للطباعة والنشر



مطابع الدار القومية للطباعة والنشر
ت : ٤١٠١٢ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٥٨٨

العدد ٤٦ الثمن ٤ قروش